



لقد كان بيت أبي طالب موطّد الأساس بالنبوّات مرفوعة معالمه بخلافة الله الكبرى وكانت آصرة النبوة ضاربة فيه من آدم إلى شيث إلى نوح إلى إبراهيم إلى إسماعيل الذبيح إلى ما تناسل منه ممن دان بالتوحيد وكانت له الوصاية في المحافظة على نواميس الأنبياء وإتّك لا تجد أحداً من عمود النسب الوضّاح الذي يقف عنده الحديث النبوي (1) إلّا آخذاً بأعضاء الشرف والسؤود حاملاً للحنيفية البيضاء دين السلام والوئام وشرعة الخليل إبراهيم (عليه السلام).

وإنّ الوقوف على بعض ما ذكره التاريخ في حقّ هؤلاء الرجال يشهد لهذه الدعوى المدعومة بالوجدان فكان (عدنان) يصارح في خطبته بأن فيمن يتناسل منه النبيّ الكريم خاتم الرسل أجمعين الداعي إلى كلمة الحقّ ورسالة الصدق ثم أوصى باتباعه.

ولكون ولده (معدّ) على نهجه أمر الله تعالى (أرميا) أن يحمله على البراق كيلا تصيبه نقمة بختنصر وعرفه بأنّه سيخرج من صلبه نبياً يكون خاتم الأنبياء فحمله إلى أرض الشام إلى أن هدأت الفتنة. (2) وكان نور النبوة يشعّ في جبهة (نزار) (3) وورد النهى عن سبّ ربيعة ومضر والياس لكونهم مؤمنين والياس أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام وأول من ظفر بمقام إبراهيم وقد أدرك (مدركة بن الياس) كل عرّ لأبائه وفي جبهته نور النبيّ محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ساطع وكان (كنانة) بن خزيمة بن مدركة يجاهر بالدعوة إلى دين (الخليل) ورفض عبادة الأصنام وإن من صلبه نبياً يدعو إلى البرّ والإحسان ومكارم الخلق.

و(فهر بن مضر) كان العرب تهابه لجمعه خصال الخير والنور اللائح على أساريه جبهته ولانتصاره على حسان بن عبد كلال حين جاء من اليمن لأخذ أحجار الكعبة ليبني بها بيتاً باليمن يزوره الناس فأسر حسان وانهزمت حمير وبقي حسان في الأسر ثلاث سنين ثم فدى نفسه بمال كثير وخرج فمات بين مكّة والمدينة. (4)

ولم يزل كعب بن لؤى يذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويعلم قريباً بأنّه من ولده ويأمر باتباعه وفي المأثور من كلامه: زَيَّنُوا حرمكم وعظّموه وتمسّكوا به ولا تفارقوا فسيأتى له نبؤٌ عظيم وسيخرج منه نبيّ كريم ثم قال:

نهار وليل واختلاف حوادث	سواء علينا حلوها ومريرها
يؤبّان بالأحداث حتى تأوَّيا	وبالنعم الضافى علينا ستورها
على غفلة يأتى النبي محمد	فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم قال:

يا ليتنى شاهد فحواء دعوته	حين العشيرة تبغى الحقّ خذلانا (5)
---------------------------	-----------------------------------

إنّ هذه السلسلة هي التي أنتجت قصيًّا فعبد مناف فهاشمًا فعبد المطلب ثم عبد الله وأبا طالب ومنهما أشرق الكون بخاتم الأنبياء وسيد الأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين. (6) والذي يجب الهتاف به أن كل واحد من عمود النسب غير مدّس بشيء من رجس الجاهلية ولا موصوم بعبادة وثن وهو الذي يرتضيه علماء الحق لكونهم صديقين بين أنبياء وأوصياء وقد نرّهم الله سبحانه في خطابه لنبيّه الأقدس: (وتقلّبك في الساجدين) فإنّه أثبت لهم بلفظ الجمع المحلّى باللّام السجود الحق الذي يرتضيه لهم. وإن ما يؤثر عنهم من الأشياء المستغربة عندنا لا بدّ وأن تكون من الشريعة المشروعة لهم وأن يكون له معنى تظهره الدراية والتنقيب.

وليس آزر الذي كان ينحت الأصنام وكاهنة نمرود أبا إبراهيم (عليه السلام) الذي نزل من ظهره لأن أباه اسمه تاريخ وآزر أمّا أن يكون عمّه كما يرتئيه جماعة من المؤرّخين وإطلاق الأب على العم شائع على المجاز وبه جاء الكتاب المجيد: (إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل لفظ الأب ولم يكن أبا يعقوب وإنما هو عمّه كما أطلق على إبراهيم لفظ الأب وهو جدّه. وأمّا أن يكون آزر جدّ إبراهيم لأمّه كما يرتئيه المنقبون والجدّ للآمّ أب في الحقيقة وممّا يؤيّد أنّه غير أبيه قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) فميّزه باسمه ولو أراد أباه الذي نزل من ظهره لاستغنى بإضافة الأبوة عن التسمية بآزر.

كل ذلك مضافاً إلى مصارحة الرسول الكريم بطهارة آبائه عن رجس الجاهلية وسفاح الكفر فإنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لما أراد الله تعالى أن يخلقنا صوّرنا عمود نور في صُلب آدم فكان ذلك النور في جبينه ثم انتقل إلى وصيّيه شيث وفيما أوصاه ألا يضع هذا النور الإلهي إلّا في أرحام المطهرات من النساء ولم تزل هذه الوصية معمولاً بها يتناقلها كابر عن كابر فولدنا الأخيار من الرجال والخيرات المطهّرات المهذّبات من النساء حتى انتهينا إلى صُلب عبد المطلب فجعله نصفين نصف في عبد الله فصار إلى آمنة ونصف في أبي طالب فصار إلى فاطمة بنت أسد. (7)

ولم يزل هذا الحال كما وصفناه حتى أقبل دور شيخ الأبطح أبي طالب وولده أمير المؤمنين والإمامين السبطين سيدي شباب أهل الجنّة والأئمّة من ولد سيّد الشهداء حتى يقف العدد على ناموس الدهر وولى الأمر في كل عصر عجل الله فرجه.

هنا يقف البيراع عن تصوير عظمة هذا البيت المنيع ويرتجّ على الكاتب ويعي الشاعر فإن حقيقة القداسة بين طرفي النبوة والإمامة التي جمعها هذا البيت لم تدع مسرحاً لقائل أو متسعاً لوصف لتقاعس القدرة البشرية عن نعت ما هو فوق مستواها ولا يمكنها الخبرة بحقائق أنوار عالم الملكوت. نعم لها الإفاضة في مقدار ما يمكنها من التوصل إليه ولو في الجملة من أنّه بيت نبوة وإمامة، بيت علم ودين، بيت عزّ وسؤدد.

بيت علا سمك الضراح رفعة	فكان أعلا شرفاً وأمنعا
أعزه الله فما تهبط في	كعبته الأملاك إلا خضعاً
بيت من القدس وناهيك به	محطّ أسرار الهدى وموضعا
فكان مأوى المرتجى والملتجى	فما أعزّ شأنه وأمنعا (8)

وهذه الصفات الكريمة هي التي أهّلت أبا طالب عليه السلام لحمل أعباء الوصاية عن الأنبياء (عليهم السلام) بعد أن تلقّاها عن أبيه عبد المطلب الذي كان وصياً من الأوصياء وقارئاً للكتب السماوية كما أخبر أبو طالب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك إذ قال له: كان أبي يقرأ الكتب جميعاً وقال إن من صلبى نبياً لوددت أنّي أدركت ذلك الزمان فآمنت به فمن أدركه من ولدى فليؤمن به. (9)



وكان أبو طالب كأبيه (شعبة الحمد) عالماً بما جاء به الأنبياء وأخبروا به أمهم من حوادث وملاحم لأنّه وصيّ من الأوصياء وأمين على وصايا الأنبياء حتى سلّمها إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). (10)

وفي ذلك يقول درست بن منصور لأبي الحسن موسى (عليه السلام) أكان رسول الله محجوباً بأبي طالب قال عليه السلام: لا ولكن كان مستودع الوصايا فدفعها إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قلت دفعها على أنّه محجوج به قال عليه السلام لو كان محجوجاً به ما دفعها إليه قلت فما كان حال أبي طالب قال عليه السلام أقرّ بالنبيّ وبما جاء به حتى مات. (11)

وقال شيخنا المجلسي أعلى الله مقامه: أجمعت الشيعة على أن أبا طالب لم يعبد صنماً قطّ وأنّه كان من أوصياء إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وحكى الطبرسي إجماع أهل العلم على ذلك، ووافقه ابن بطريق في كتاب

الاستدراك. (12)

وقال الصدوق: كان عبد المطلب وأبو طالب من أعراف العلماء وأعلمهم بشأن النبي وكانا يكتمان ذلك عن الجهال والكفرة. (13)

ومما يشهد على ذلك الحديث الصحيح عن أمير المؤمنين (عليه السلام): والله ما عبد أبي ولا جدّي عبد الله ولا عبد مناف ولا هاشم صنماً وإنّما كانوا يعبدون الله ويصلون إلى البيت على دين إبراهيم متمسكين به. (14) ويقول أبو الحسن الرضا (عليه السلام): كان نقش خاتم أبي طالب: (رضيت بالله رباً وبابن أخى محمد نبياً وبابنى عليّ وصيّاً له). (15)

مضافاً إلى أن قريشاً لما أبصرت العجائب ليلة ولادة أمير المؤمنين (عليه السلام) خصوصاً لما أتوا بالآلهة إلى جبل أبي قبيس ليسكن ما حلّ بهم ارتجّ الجبل وتساقطت الأصنام ففزعوا إلى أبي طالب لأنّه مفزع اللاجى وعصمة المستجير، وسلوه عن ذلك فرفع يديه مبتهلاً إلى المولى جلّ شأنه قائلاً: إلهى أسألك بالمحمّدية المحمودّة والعلوية العالية والفاطمية البيضاء إلّا تفضّلت على تهامة بالرأفة والرحمة فسكن ما حلّ بهم، وعرفت قريش فضل هذه الأسماء قبل ظهورها وتدعو بها عند المهمات وهى لا تعرف حقيقتها. (16) ومن هنا اعتمد عليه عبد المطلب فى كفالة الرسول صلى الله عليه وآله فخصّه به دون سائر بنيه وقال:

وصيت من كنيته بطالب	عبد مناف وهو ذو تجارب (17)
بابن الحبيب أكرم الأقارب	بابن الذى قد غاب غير آتب

فقال أبو طالب:

لا توصنى بلزوم وواجب	إنّى سمعت أعجب العجائب
من كل حبر عالم وكاتب	بأن بحمد الله قول الراهب

فقال عبد المطلب انظر يا أبا طالب أن تكون حافظاً لهذا الوحيد الذى لم يشم رائحة أبيه ولم يذق شفقة أمّه انظر أن يكون من جسدك بمنزلة كبداك فإنّى قد تركت بنى كلّهم وخصصتك به فانصره بلسانك ويدك ومالك فإنّه والله سيسودكم ويملك ما لا يملك أحد من آبائى هل قبلت وصيتى؟ قال: نعم قد قبلت والله على ذلك شاهد. فقال عبد المطلب: مدّ يدك، فمدّ يده وضرب عبد المطلب بيده على يد أبى طالب ثم قال عبد المطلب: الآن خفف علىّ الموت، ولم يزل يُقبّله ويقول: أشهد أنّى لم أرَ أحداً أطيب ريحاً منك ولا أحسن وجهاً. (18) لم ينصّ عبد المطلب عليه بالوصية لمحض أنّه شقيق أبيه عبد الله فلقد كان الزبير يشارك أبا طالب فى ذلك وإنّما هو لكفائيته لتلك المرتبة القدسية فقد صاغه المهيمن سبحانه متأهلاً لحمل النواميس الإلهية (شديد بأعباء الخلافة كأهله).

فاجتمعت فيه القابلية الذاتية والمعدات المفاضة عليه من سلفه الطاهر ومن الأوصياء الماضين وتأكدت بمصاحبة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) آناء الليل وأطراف النهار فلا يكاد يفارقه آنأ ما وبمشهد منه الإرهاصات النبوية والإفاضات الإلهية المكهربة للمواد اللائقة. فرح أبو طالب بهذه الخطوة من أبيه العطوف وراح يدّخر لنفسه السعادة الخالدة بكفالة نبيّ الرحمة فقام بأمره

وحماه في صغره بماله وجاهه من اليهود والعرب وقريش وكان يؤثره على أهله ونفسه وكيف لا يفعل هذا وهو يشاهد من ابن أخيه ولما يبلغ التاسعة من عمره هيكل القدس يملأ الدست هيبة ورجاجة أكثر ضحكه الابتسام ويأنس بالوحدة أكثر من الاجتماع وإذا وضع له الطعام والشراب لم يتناول منه شيئاً إلا قال باسم الله الأحد وإذا فرغ من الطعام حمد الله وأثنى عليه وإن رصده في نومه شاهد النور يسطع من رأسه إلى عنان السماء. (19)

وكان يوماً معه بذى المجاز فعطش أبو طالب ولم يجد الماء فجاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى صخرة هناك فركلها برجله فنبع من تحتها الماء العذب (20) وزاد على ذلك توفر الطعام في بيته حتى أنه يكفي الجمع الكثير إذا تناول النبي منه شيئاً. (21)

وهذا وحده كاف في الإذعان بأن أبا طالب كان على يقين من نبوة ابن أخيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أضف إلى ذلك قوله في خطبته لما أراد أن يزوجه من خديجة (وهو والله بعد هذا له نبؤ عظيم وخطر جليل). (22)

وكان يقول في وصيته لقريش عند الوفاة: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ولا شرفاً إلا أدركتموه فلکم به على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة والناس لكم حرب وإلى حربكم إلب وإتي أوصيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للجأش وثباتاً للوطأة صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن صلة الرحم منسأة للأجل وزيادة في العدد واتركوا البغي والعقوق ففيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة للخاص ومكرمة للعام.

وإني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب كآتي انظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموه فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ودورها خراباً وأعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم أقربهم عنده قد محضته العرب ودادها وأصغت له فؤادها وأعطته قيادها.

دونكم يا معشر قريش المحافظة على ابن أخيكم وكونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا سعد ولا يأخذ بهدية إلا رشد ولو كان للنفس مدة وللأجل تأخير لكفيت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي. وأنشد:

أوصى بنصر النبي الخير مشده	علياً ابني وشيخ القوم عباساً
وحزمة الأسد الحامي حقيقته	وجعفرأ أن يذودا دونه الناسا
كونوا فدأء لكم أمى وما ولدت	فى نصر أحمد دون الناس أتراسا (23)

ولما جاء العباس إلى أبي طالب يخبره بتألب قريش على معاداته قال له أن أبى أخبرنى أن الرسول على حق ولا يضره ما عليه قريش من المعادات له وإن أبى كان يقرأ الكتب جميعاً وقال إن من صلبى نبياً لوددت أنى أدركته فآمنت به فمن أدركه فليؤمن به. (24)

واستشهاده بكلمة أبيه القارئ للكتب الإلهية مع أنه كان يقرؤها مثله يدلنا على تفننه في تنسيق القياس وإقامة البرهان على صحة النبوة وأن الواجب اعتناق شريعته الحقّة.

أمّا هو نفسه فعلى يقين من أن رسالة ابن أخيه خاتمة الرسالات وهو أفضل من تقدّمه قبل أن يشرق نور النبوة على وجه البسيطة ولم تجهل لديه صفات النبي المبعوث وعلى هذا الأساس أخبر بعض أهل العلم من الأخبار حينما أسرّ إليه بأن ابن أخيه الروح الطيبة والنبي المطهر على لسان التوراة والإنجيل فاستكتمه أبو طالب الحديث

كى لا يفشوا الخبر، ثم قال له: إن أبى أخبرنى أنه النبىّ المبعوث وأمر أن أستر ذلك لئلاّ يغرى به الأعداى. ولو لم يكن معتقداً صدق الدعوة لما قال لأخيه حمزة لما أظهر الإسلام (25)

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد	وكن مظهراً للدين وفقت صابرا
وخط من أتى بالدين من عند ربه	بصدق وحق لا تكن حمز كافرا
فقد سرّنى إذ قلت أنك مؤمن	فكن لرسول الله فى الله ناصرا
وناد قريشاً بالذى قد أتيت	جهاراً وقل: ما كان أحمد ساحرا
نبىّ أتاه الوحي من عند ربّه	فمن قال لا، يقرع بها سنّ نادم

ومما خاطب بها النجاشى:

تعلم خيار الناس أن محمداً	وزير لموسى والمسيح ابن مريم
أتى بالهدى مثل الذى أتيا به	فكل بأمر الله يهدى ويعصم
وإنكم تتلونه فى كتابكم	بصدق حديث لا حديث المترجم
فلا تجعلوا لله ندّاً وأسلموا	فإن طريق الحق ليس بمظلم

وقال :

اذهب بنىّ فما عليك غضاضة	اذهب وقر بذاك منك عيوننا
والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد فى التراب دفينا
ودعوتنى وعلمت أنك ناصحى	وصدقت ثم وكنت قبل أميننا
وذكرت ديناً لا محالة أنّه	من خير أديان البرية ديننا (26)

وبعد هذه المصارحة هل يخالغ أحداً الربى فى إيمان أبى طالب؟ وهل يجوز على من يقول إنا وجدنا محمداً كموسى نبياً إلاّ الاعتراف بنبوّته والإقرار برسالاته كالأنبياء المتقدّمين وهل يكون إقرار بالنبوّة أبلغ من قوله (فأمسى ابن عبد الله فينا مصدّقاً) وهل فرق بين أن يقول المسلم: أشهد أن محمداً رسول الله وبين أن يقول :

وإن كان أحمد قد جاءهم بصدق ولم يتهم بالكذب

أو يعترف الرجل بأن محمداً كموسى وعيسى جاء بالهدى والرشاد مثلما أتيا به ثم يحكم عليه بالكفر، وهل هناك جملة يعبر بها الإسلام أصرح من قول المسلم:

وذكرت ديناً لا محالة أنّه من خير أديان البرية ديننا (27)

كلّا، ولو لم يعرف أبو طالب من ابن أخيه الصدق فيما أخبر به لما قال له بمحضر قريش ليريههم من فضله وهو به خبير وجنانه طامن: يا ابن أخى الله أرسلك؟ قال نعم، قال أبو طالب: إن للأنبياء معجزة وخرق عادة فأرنا آية، قال النبىّ (صلى الله عليه وآله وسلم): يا عمّ ادع تلك الشجرة وقل لها: يقول لك محمد بن عبد الله اقبلى بإذن الله

فدعاها أبو طالب فأقبلت حتى سجدت بين يديه ثم أمرها بالانصراف فانصرفت.

فقال أبو طالب: أشهد أنك صادق، ثم قال لابنه: يا علي ألزمه وفي بعض الأيام رأى علياً يصلي مع النبي فقال له: يا بني ما هذا الذي أنت عليه، قال يا أبة آمنت بالله وبرسوله وصدقت بما جاء به ودخلت معه واتبعته فقال أبو طالب: أما إنّه لا يدعوك إلا إلى خير فلا يدعوك إلا إلى خير فألزمه. (28)

فهل يجد الباحث بعد هذا ملتحداً عن الجزم بأن شيخ الأبطح كان معتقناً للدين الحنيف ويكافح طواغيت قريش حتى بالصلاة مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن أهمله فريق من المؤرخين رعاية لما هم عليه من حُبّ الوقية في أبي طالب وروميّه بالقذائف حنقاً على ولده أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي لم يتسنّى لهم أي غميرة فيه فتحاملوا على أمّه وأبيه إيذاءً له وإكثاراً لنظائر من يرمون إكباره وإجلاله ممن سبق منهم الكفر وحيث لم يسعهم الحطّ من كرامة النبي والوصى عمدوا إلى أبويهما الكريمين فعزّوا إليهما الطامات وسترّوا ما يؤثر عنهما من الفضائل إيثاراً لما يروقههم إثباته.

يشهد لذلك ما ذكره بعض الكتّاب عند أسرى بدر فإنّه قال: وكان من الأسر عمّ النبي وعقيل ابن عمّه (أخو عليّ) (29).

فلو كان غرضه تعريف المأسور لكان في تعريف عقيل بأنّه ابن عم النبي كفاية كما اكتفى في تعريف العباس به ولم يحتج أن يكتب بين قوسين (أخو عليّ) وأنت تعرف المراد من ذكر هذه الكلمة بين قوسين وإلى أي شيء يرمز بها الكاتب ولكن فاته الغرض وهيئات الذي أراد ففشل.

ثم جاء فريق آخر من المؤرخين يحسبون حصر المصادر في ذوى الأغراض المستهدفة وإن ما جاءوا به حقائق راهنة فاقترضوا على مروياتهم مما دبّ ودرج وفيها الخرافات وما أوحته إليهم الأهواء والنوايا السيئة ومن هنا أهملت حقائق ورويت أباطيل.

فعزّوا إلى أبي طالب قوله: إنّى لا أحب أن تعلموني استى ثم رووا عنه أنه قال لرسول الله: ما هذا الدين؟ قال رسول الله: دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم بعثنى الله به إلى العباد وأنت أحقّ من دعوته إلى الهدى وأحقّ من أجابنى. (30)

فقال أبو طالب إنّى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى والله لا يخلص إليك من قريش شيء تكرهه ما حييت (31).

فحسبوا من هذا الكلام أن أبا طالب ممن يعبد الأوثان كيف وهو على التوحيد أدلّ وجوابه هذا من انفس التورية وأبلغ المحاورة فإن مراده من قوله لرسول الله عقيب قوله أنت أحقّ من دعوته: إنّى لا أستطيع أن أفارق دينى ودين آبائى.

الاعتراف بإيمانه وإنّه باق على حنيفة إبراهيم الخليل التى هى دين الحق ودينه ودين آبائه ثم زاد أبو طالب فى تطمين النبيّ بالمدافعة عنه مهما كان باقياً فى الدنيا.

نعم من لا خبرة له بأساليب الكلام وخواص التورية يحسب أن أبا طالب أراد بقوله: إنّى لا أفارق دينى.. الخ الخضوع للأصنام فصفق طرباً واختال مرحاً.

وجاء آخر يعتذر عنه بأن شيخ الأبطح كان يراعى بقوله هذا الموافقة لقريش ليتّمكن من كلاءة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وتمشية دعوته.

نحن لا ننكر أن أبا طالب كان يلاحظ شيئاً من ذلك ويروقه مداراة القوم للحصول على غايته الثمينة كى لا يمسّ كرامة الرسول القوم للحصول على غايته الثمينة كى لا يمسّ كرامة الرسول سوء لكنّا لا نوافقهم فى كل ما

يقولونه من انسلاله عن الدين الحنيف انسلالاً باتاً، فإنه خلاف الثابت من سيرته حتى عند رواة تلکم المخزيات ومهملى الحقائق الناصعة حذراً عمّا لا يلائم خطتهم فلقد كان يراغم الطواغيت بما هو اعظم من التظاهر بالإيمان والائتمام بالصلاة مع النبى (صلى الله عليه وآله وسلم). وإن شعره الطافح بذكر النبوة والتصديق بها سرت به الركبان وكذلك أعماله الناجعة حول دعوى الرسالة.

ولولا أبو طالب وابنه	لما مثل الدين شخصاً فقاما
فذاک بمكة آوى وحاما	وهذا بيثرب جسّ الحماما
تكفل عبد مناف بأمر	وأودى فكان علىّ تماما
فلله ذا فاتح للهدى	ولله ذا للمعالى ختاما
وما ضرّ مجد أبى طالب	عدوّ لغى وجهول تعامى

وخلاصة البحث إن أبا طالب حلقة الوصل بين سلسلة الوصاية عن الرسل الماضيين حتى أوصلها إلى النبى الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) وكما تنتهى به الحلقات الغابرة فإن بولده أمير المؤمنين تبتدأ سلسلة الخلافة المحمدية ثم تتواصل فى بنيه الأطهرين حتى تنتهى إلى حجة العصر وناموس الدهر الحجة المهدى المنتظر عجل الله فرجه.

فبيت أبى طالب بيت ضرب على النبوة سرداقه، وبنى على الوصاية أطرافه، ونيط بالدين أطنابه، وأسدل على العلم سجافه ووطدت على التقوى أوتاده.

إذاً فما ظنك بمن ضمه هذا البيت وتربى فيه فهل يعدوه أن يكون إما داعية إلى الهدى أو مهذباً للبشر أو معلماً للنواميس الإلهية أو هادياً إلى سبل السلام أو قائداً إلى الصالح العام.

نعم لا يجوز أن يكون من حواه هذا البيت إلا كما وصفناه بعد أن كان نصب عينه العلام الإلهية وملؤ أذنه الوحي والإلهام وحشو فؤاده نكن من عالم الغيوب ومعه التمارين المسعدة والتعاليم المصلحة.

وقد لبى هتاف الدعوة زوج شيخ الأبطح التى شهد لها الرسول الأمين بأنّها من الطاهرات الطيّبات المؤمنات فى جميع أدوار حياتها، والعجب ممن اغترّ بتمويه المبطلين فدوّن تلك الغرية زعماءً منه أنّها من فضائل سيّد الأوصياء وهى أن فاطمة بنت أسد دخلت البيت الحرام حاملة بعلى بن أبى طالب فأرادت أن تسجد لهبل فمنعها على (عليه السلام) وهو فى بطنها. (32)

وقد فات المسكين أن فى هذه الكرامة التى حسبها طعناً بتلك الذات المبرأة من رجس الجاهلية ودنس الشرك وكيف يكون أشرف المخلوقات بعد خاتم الأنبياء المتكون من النور الإلهى مودعاً فى دعاء الكفر والجحود.

كما إنهم أبعدوها كثيراً عن مستوى التعاليم الإلهية ودروس خاتم الأنبياء الملقاة عليها كل صباح ومساء وفيها ما فرضه المهيمن سبحانه على الأمة جمعاء من الإيمان بما حبا ولدها الوصى بالولاية على المؤمنين حتى اختص بها دون الأئمة من أبنائه وإن كانوا نوراً واحداً وطينة واحدة ولقد غضب الإمام الصادق (عليه السلام) على من سمّاه أمير المؤمنين وقال: مه لا يصلح هذا الاسم إلّا لجدى أمير المؤمنين.

فرووا أنّ النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) وقف على قبرها وصاح ابنك على لا جعفر ولا عقيل، ولما سئل عنه أجاب أن الملك سألها عن تدين بولايته بعد الرسول فخلجت أن تقول ولدى. (33)

أمن المعقول أن تكون الذات الطاهرة الحاملة لأشرف الخلق بعد النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) بعيدة عن تلك التعاليم المقدسة، وهل فى الدين حياة، نعم أرادوا أن يزحزحوها عن الصراط السوى ولكن فاتهم الغرض

وأخطأوا الرمية.

فإن الصحيح من الآثار ينص على ان النبي لما أنزلها في لحدها ناداها برفيع صوت: يا فاطمة أنا محمد سيد ولد آدم ولا فخر فإذا أتاك منكرو ونكير فسألاك من ربك؟ فقولى الله ربى ومحمد نبى والإسلام دينى والقرآن كتابى وابنى إمامى ووليى، ثم خرج من القبر وأهال عليها التراب. (34)

ولعل هذا خاص بها ومن جرى مجراها من الزاكين الطيبين كفاطمة الزهراء (عليها السلام) فإن الحديث ينص على أنها لما سألتها الملكة عن ربها قالت الله ربى، قالا ومن نبىك، قالت: أبى، قالا: ومن وليك، قالت: هذا القائم على شفير قبرى على بن أبى طالب. (35)

والأفلم يعهد فى زمان الرسالة تلقين الأموات بمعرفة الولي بعد النبي فإن غاية ما جاء عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنها تهدم الخطايا.

والخدشة فى هذا الحديث واضحة فإن الاعتراف بالرسالة كالاعتراف بالتوحيد متلازمان، وتلقين الأموات إنما هو لأجل أن يكون العبد الراحل عن هذه الدنيا باقياً على ما هو عليه فيها حتى فى آخر المنازل، فالإقرار بإحدى الشهادتين لا ينفك عن الأخرى، فهذا الحديث الناص على الإقرار بكلمة التوحيد مع السكوت عن الشهادة بالرسالة لنبي الإسلام لا نعرف سنده ليكون شاهداً ودليلاً.

وعلى كل فتخصيص زوج أبى طالب بذلك التلقين كالتكبير عليها أربعين من خصائصها لأن التكبير على الأموات خمس.

وبالرغم من هاتيك السفاسف التى أرادوا بها الحط من مقام والده أمير المؤمنين (عليه السلام) أظهر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمام الأمة ما أعرب عن مكانتها من الدين وأنها بعين فاطر السماء سبحانه حين كفنها بقميصه الذى لا يبلى لتكون مستورة يوم يعرى الخلق وكان الاضطجاع فى قبرها إجابة لرغبتها فيه عندما حدثها عن أحوال القبر وما يكون فيه من ضغط ابن آدم.

ولولا التنازل لرغبتها لما كان لاضطجاعه (صلى الله عليه وآله وسلم) معنى فإن المؤمن المعترف بولاية أمير المؤمنين لا تصيبه الضغطة كما فى صحيح الأثر فكيف بالوعاء الحامل لمن تكون من النور الأقدس.

فتحصل أن هذا البيت الطاهر بيت أبى طالب بيت توحيد وإيمان وهدى ورشاد وإن من حواه البيت رجالاً ونساءً كلهم على دين واحد منذ هتف داعية الهدى وصدع بأمر الرسالة غير أنهم بين من جاهر باتباع الدعوة وبين من كتم الإيمان لضرب من المصلحة.

وقد لبّت هذا الهتاف أم هانى بنت أبى طالب فكانت من السابقات إلى الإيمان كما عليه صحيح الأثر وفى بيتها نزل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من المعراج وهو فى السنة الثالثة من البعثة وحدثها بأمره قبل أن يخرج إلى الناس وكانت مصدقة له غير أنها خشيت تكذيب قريش إياه وعليه فلا يعبأ بما زعم من تأخر إسلامها إلى عام الفتح سنة ثمان من الهجرة.

وكانت وفاتها إمّا فى أيام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما فى مناقب ابن شهر آشوب ج 1 ص 110 وأمّا فى خلافة معاوية كما فى تقريب التهذيب لابن حجر ص 620 وحينئذ فليست هى المعنوية بما فى كامل الزيارة لابن قولويه ص 96 وأقبلت إليه بعض عمّاته تقول: اشهد يا حسين لقد سمعت قائلاً يقول:

«وإن قتل الطف من آل هاشم» «أذلّ رقاباً من قريش فذلت»

المصادر :

- 1- مناقب ابن شهر آشوب (ج 1 - ص 106) وكشف الغمة للإربلى ص 6
- 2- السيرة الحلبية (ج 1 - ص 20).
- 3- الروض الآنف للسهيلي (ج 1 - ص 8).
- 4- السيرة الحلبية (ج 1 - ص 9 وص 19).
- 5- صبح الأعشى (ج 1 - ص 211).
- 6- إثبات الوصية للمسعودي ص 75 /الروض الآنف (ج 1 - ص 6).
- 7- هذا حاصل أحاديث ذكرها المجلسي في البحار (ج 6 - ص 6) و(ج 9 - ص 8).
- 8- من قصيدة للعلامة الحجة السيد محمد حسين الكيشوان رحمه الله.
- 9- البحار (ج 9 - ص 31).
- 10- مرآة العقول (ج 1 - ص 362).
- 11- البحار (ج 9 - ص 29).
- 12- البحار ج 35 ص 138 و 139.
- 13- إكمال الدين ص. 102.
- 14- المصدر السابق ص. 104.
- 15- الدرجات الرفيعة للسيد عليّ خان بترجمة أبي طالب.
- 16- روضة الواعظين للفتال ص. 69.
- 17- السيوطي في شرح شواهد المغنى ص 135 مصر، / ابن حجر في الإصابة ج 4 ص 115 / الحاكم النيسابوري في المستدرک ج 3 ص 108 عن محمد بن إسحاق.
- 18- مرآة العقول ج 1 ص. 268.
- 19- مناقب ابن شهر آشوب ج 1 ص. 37.
- 20- السيرة الحلبية ج 1 ص. 139.
- 21- السيرة الحلبية ج 1 ص. 139.
- 22- السيرة الحلبية ج 1 ص. 139.
- 23- تاريخ الخميس ج 1 ص 339 و طراز المجالس للخفاجي ص 217 و ثمرات الأوراق للحموي بهامش المستطرف ج 2 ص 10 و بلوغ الإرب ج 1 ص 327 الطبعة الأولى وأسنى المطالب لزيّني دحلان ص. 5.
- 24- الحجة على الذهاب ص. 65.
- 25- المصدر السابق ص. 71.
- 26- الزمخشري في الكشاف ج 1 ص 448 طبع سنة 1308 هـ وابن دحلان في السيرة النبوية بهامش السيرة الحلبية ج 1 ص 97 طبع سنة 1329 هـ.
- 27- شرح النهج لابن أبي الحديد ج 3 ص. 309.
- 28- تاريخ الطبري ج 2 ص. 214.
- 29- تاريخ الأمة العربية للمقدادي ص 84 مطبعة الحكومة بغداد سنة 1939 م.

30- السيرة الحلبية ج 1 ص.306

31- الطبرى ج 1 ص 213 وابن الأثير ج 2 ص.21

32- نهاية الإرب للنويرى ج 2 ص 341 / ابن جرير الطبرى فى التاريخ ج 6 ص 89 وابن الأثير فى الكامل ج 3 ص 158 وأبو الفدا فى المختصر ج 1 ص 170 وابن كثير فى البداية ج 7 ص 332 كما فى النهاية.

33- خصائص أمير المؤمنين للسيد الرضى وفى طريق الحديث محمد ابن جمهور العمى الضعيف بنص النجاشى والكشى وابن الغضائرى والعلامة الحلى.

34- مجالس الصدوق ص 189 مجلس.51

35- الإصابة لابن حجر ج 2 ص 478 بترجمة عروة بن مسعود.